إضاءات نقدية (فصلية محكّمة)
السنة الرابعة –العدد الخامس عشر –خريف ١٣٩٣ش /أيلول ٢٠١٤م
صص ١٣٠ ـ ١١٣

الحرية فى أشعار يوسف الخال

حسن گودرزى لمراسكى*
سيد على مفتخرزاده**
أيوب حيدرى***

الملخص

تُعتبرُ الحريةُ من أعظم القيم الإنسـانية وهى إحدى الأدوات التى تُتيح للفرد استمرارية الحياة والتطور، فلهذا كانت الشعوب تطمح إليها دوماً. إنّ كلمة الحرية لها جذورٌ تتعمقُ فى تاريخ البشرية، وقد ظهر مفهومُ الحرية بمدلولات منها؛ المطالبة بالعدالة، والبحث عن الحقيقة، والترعة إلى الكمال، والتركيز على نمو الكيان الإنسانى. قد تجلّت الحريةُ فى آداب الأُمم بصُوَر متنوعة. أما الحرية فى الأدب العربى المعاصر فإنّها قد تمَّ تداولُها بين الأوساط الأدبية بأشـكال مختلفة، خاصةً قد تجلّت فى ثوب ما يُطلَقُ عليه الحريةُ الوجودية والّتى ترتكزُ على وعى الإنسان وفكره.

تسـعى هذه المقالة إلى أن تتناول رؤى الشاعر المعاصر السورى، يوسف الخال، عبر ما قرضه من القصائد، فقامت بتحليلها مرتكزة فى ذلک على ثلاثة محاور أساسـية: الحرية السياسية، والحرية الاجتماعية، والحرية الوجودية؛ وذلک لأن الشاعر قد ضاق ذرعاً من ضيم الصهاينة حيث يعتقد أن الحرية لا تتحقق إلّا بالمثابرة، والكفاح، والتضحية. ويرى أنّ الحريةَ الاجتماعية هى استتبابُ الحرية على أرض الواقع لكى تمهّد الطريقَ لِتواجُدِ الشعبِ فى المجالات المتنوعة.

كما أن الشاعرَ وجودىٌّ يشغله شأنُ الإنسان وهواجسُه؛ فالإنسانُ لَبنة يبنى عليها أفكاره ورؤاه، ويعتقـد أن الحرية طريقُ للوصول إلى الحقيقة، كما يرى أن التعقّلَ أهمُّ أسـاس لتحقيق الحرية، ويتخذ الشاعر منه مركبا للوصول إلى الحرية الحقيقة.

الكلمات الدليلية: يوسف الخال، الحرية السياسية، الحرية الاجتماعية، الحرية الوجودية.

---

*. أستاذ مساعد بجامعة مازندران، بابلسر، إيران. h.goodarzi@umz.ac.ir
**. طالب مرحلة الدكتوراه بجامعة الشهيد بهشتى فى طهران، إيران.
***. طالب مرحلة الماجستر بجامعة مازندران،بابلسر، إيران.

التنقيح والمراجعة اللغوية: د. مهدى ناصرى
تاريخ الوصول: ١٣٩٣/١/١٧ش تاريخ القبول: ١٣٩٣/٨/١٤ش

المقدمة

هناک مفاهيمُ يواجهها الإنسانُ عبرَ حياته ويبذل مجهوداً للوصول إليها، والحرية إحدى تلک المفاهيم والقيم التی وهبها اللهُ سبحان وتعالی للإنسان.

قد أثارت الحرية عبر التاريخ جدلاً وشغلت بالَ المفكرين، كما كانت كلمةُ الحرية منذ القدم مجالاً ذا خطر لتحدی الآراء بين أصحاب الرأی، والمذاهب الفكرية المختلفة تدبّرت فيها وقامت بالتنظير حولها، وإثرَ ذلک سطّر الكُتّابُ وأصحاب الرأی فی مجال الفكر حول الحرية وأسهبوا فی كتاباتهم. إنَّ دندنةَ أغنية الحرية أمرٌ فطری بحيث ترتاح إلی أنغامها القلوبُ؛ فلهذا، علينا أن نربط نشْأَتها بزمن بدأ الإنسان يتعرّف فيه علی ذاته وكيانه. ففی قصة خلق آدم، ابتدأ وعی الإنسان بخيارٍ انتهی إلی عقابِه وطرده من الجنّة، ليستقرّ بعد ذلک علی هذه الأرض، وهذا البرعم المتفتّح للحرّية؛ سُمِّیَ العصيانَ. (كاتوزيان،١٣٨١ش: ١٨٢)

إنّ الحرية مبدأ مقدس، ولها مفاهيم وتعاريف متنوعة؛ يقول الإمام علی (ع) مخاطباً ابنه الكريم: «ولا تكن عبد غيرک وقد جعلک الله حُرّاً.» (نهج البلاغة، ١٣٧٩ش، الرسالة٣١)

إنّ كلمة الحرية أمر وصفی، ولِكی نستوعب مفهومها يتطلّب أن نلمّ بأصل الحرية أو نسأل أنفسنا بم تتعلق الحرية؟ يقول جون سيتوارت ميل، الحكيم البريطانی فی القرن التاسع عش حول الحرية: «الحرية الّتی تستحق أن يُطلق عليها الحرية؛ هی الّتی نحسّ فيها بأننا أحرار وبأنّنا نبحث عن صلاحنا بالطريق الّذی نراه صواباً، دونَ أن نحرم الآخرين من حُريّتهم، دونَ أن نكون حَجَر عثر فی طريقهم، فكل فرد يحافظ بنفسه علیٰ سلامته.» (صناعی، ١٣٥٤ش: ٣٢١) ولكن، عندما يُساق الحديث حول الحرية فی آداب الأمم، يُقصد بها الحرية الوجودية والّتی تقوم دعائمها علی الفلسفة الوجودية. ففی هذا النوع من الأدب يتمكن الأديب أو الشاعر من أن يعلن عن موقفه بصورة كاملة حولَ ما يدور فی عصره؛ لأنَّ المبادئ المجرّدة لا قيمةَ لها إلّا إذا ارتبطت بالجوانب الاجتماعية وتمَّ تخصيصها إلی موقف خاص، كما أن وجود الأديب لا يتحقق بإلمامه علی الموقف فحسبُ بَل يتطلب أن يكون الأديبُ ملتزماً قبل كلّ شیء، وأن يكون هذا

الالتزام فى خِضَمّ الصراع الذى خلقته شـؤونُ عصره، وبالتالى، هذه الأمور تُثير القلقَ والألم والأمـل، وفى الواقع يهدف الأدب إلـى أن يصوّر واقعَ الحياة، فالوجودية حقيقةٌ ظناً منها وليست قيمةً. (ميرقادرى، ١٣٨٥ش: ١١٩)

إذا أردنا البحث عن أسماء جنحت إلى بثّ مفهوم الحرية فى الشـعر فعلينا أن نذكر هاينريش هاينه، الّذى ولد سـنة ١٧٩٧م فى دوسلدورف الألمانية. يُعتبرُ هاينه من أبرز الوجوه الأدبية التى دعت إلى الحرية وناضلت لأجلها. (مبشر، ١٣٥٨ش: ٢٨)

أمـا الحريـة فى الأدب العربى المعاصر فإنّهـا قد تمّ تداولها بين الأوسـاط الأدبية بأشـكال مختلفة منها: الحرية السياسية والاجتماعية؛ حيث قد تجلّت خاصةً فى ثوب ما يطلق عليه الحريةُ الوجودية والّتى ترتكز على وعى الإنسان وفكره.

قد ذهب المفكرون فى تعاملهم مع مفهوم الحرية إلى مذهبين مختلفين؛ فئة منهم تعتقد بأن الحرية هى سيادة العقل والفكر، وفئة أخرى ترى أن الحرية هى السلطة والقوة. أما يوسـف الخال فهو ينزع إلى العقل فى تفسيره لمفهوم الحرية، ويرى أن الإنسانَ عليه أن يحقق الحريةَ الداخلية فى نفسه؛ فلا ينال الإنسانُ هذه الحريةَ إلّا إذا أقهر وألجم بسلطان العقل أهواءه؛ لأنَّ التحررَ من قيود النفس تتبعه الحريةُ الاجتماعية والسياسية.

إنّ شـاعرنا عاش عصراً كان الشعبُ فيه يكتوى بويلات الحروب المتتالية وتتجرع كأسَ الضيـم بمـرارة؛ فضاقت ذرعاً مـن تلك الظروف القاسـية وحاولت البحثَ عن الحرية بجانبيها الفردى والاجتماعى.

لهذا تطّلع يوسف الخال كغيره من أبناء الشعب إلى الحرية، وبصفته شاعراً، قام ببثّ وبتصوير تلك الأُمنية فى أشعاره، خاصةً فيما قرضه من القصائد فى بداياته الشعرية.

هذه المقالة تسعى أن تدرس مفهوم الحرية من منظور يوسف الخال وتجيب عن هذا الاستفسار، وهو كيف تتجلّى الحريّة فى رؤى يوسف الخال؟

فرضية البحث

نظراً إلى سؤال بحثنا الرئيس، ترتكز فرضيتنا على أن الحرية تتجلّى بصُور مختلفة فى رؤية الشـاعر؛ منها؛ الحرية السياسية، الاجتماعية والوجودية، كما يعوِّل الشاعر على

العقل أكثر منه إلى غيره، ويعتقد إذا كان العقل مرشداً سيصل الإنسان إلى غيره، ويعتقد إذا كان العقل مرشداً سيصل الإنسان إلى الحرية الحقيقية.

خلفية البحث

هناک دراسات تطرقت إلى يوسف الخال، وشعره، وأفكاره، منها:

١. دراسة حياة وأعمال يوسف الخال؛ طاووس اسفنديار، ١٣٨٨ش، طهران. تعرضت هذه الرسالة إلى حياة يوسف الخال وإلى أهمِّ إنجازاتها الأدبية، أى مجلة الشعر ووجهات نظره حول الأدب كما درست مضامينه الشعرية.

٢. اللقاء مع يوسف الخال؛ ترجمه حسن حسينى، مجلة الكيان، العدد الأول، تشرين الأول،١٤١٣ق.

دار هذا اللقاء باستفسارات طرحها جُرج طراد على الشاعر وذلک فى أجواء حميمة وصريحة دون المجاملة وكانت معظم تلک الأسئلة والاستفسارات حول مجلة الشعر، وطبيعة انطلاقها، وإغلاقها.

٣. يوسف الخال، أدونيس، وقصة مجلة الشعر؛ محمد جواهر كلام، ١٣٨٦ش.

تتحدث هذه المقالة عن يوسف الخال، وأدونيس، وعن طبيعته انطلاق مجلة الشعر وأهدافها وإنجازاتها؛ ولكن لم تكن هناک مقالة تدرس مفهوم الحرية من منظور يوسف الخال، فلذلک قامت هذه المقالة بدراسة ذلک المفهوم فى رؤى الشاعر.

يوسف الخال

ولد يوسف الخال؛ الشاعر، والمترجم، والصحفى، والناقد المعاصر العربى سنة ١٩١٧م فى إحدى قرى من الأحياء المسيحية فى وادى قصارى "عمار الحصن" شمالى سورية، تقع عمار الحصن عليسفح جبلٍ يقرب من قلعة تُعرف باسم حصن الأكراد الّتى نباها صليبيون. (كامبل، ١٩٩٦ش: ٥٢٥/١؛ الريس، ١٩٩٦ش: ١٩٩)

قد بدأ الخال حياته الأدبية سنة ١٩٣٦م بكتابة رواية (سلماى)، وتعتبر هذه الرواية باكورة أعماله والتى تشهد على نزعته فى إصلاح المجتمع والدفاع عنه. (السالسى،

٢٠٠٤م: ٤١) وبعد أن أكبّ على الأدب وذاع صيته، انتقل إلى نيويورک للعمل فى الأمانة العامة لمنظمة الأمم المتّحدة فى سنة ١٩٤٨م إلى ١٩٥٢م، وتعاون الخال مع ١٤ مجلة، فكانت "مجلة الشعر" وليدة تجارب حصل عليها يوسف الخال عبر تلک السنين بانخراطه فى العمل الصحفى وانكبابه على الأدب، واستطاعت هذه المجلة وفى فترة قصيرة أن تصبح من أبرز ومن أهمّ المجلات فى الأقطار العربية.

كان يوسف الخال من أبرز دعاة الحداثة فى الشعر ومن بدعه الخاصة دعوته إلى استخدام اللغة العامية فى الشعر الحديث. (اسوار، ١٣٨١ش: ٢٧٧)

وتدور معظم اشعاره حول الإنسان وما يرتبط به من ألم وفرح ومن ذنب وتوبة، من حرية وعبودية، ومن ذُل وشرف وحياة وموت. ويرى أن كل تجربة خلت من الإنسان وإرادته فإنّها مصطنعة ولا قيمةَ لها وعندئذ يلفظها الشعر الخالد.

شعر يوسف الخال يحمل فى مواضيعه ومضامينه هواجس الفكر الإنسانى فى العصر. ويتميز نتاجه الشعرى فى ديوان الشعر العربى المعاصر بما يحمله من لحن معنوى عميق وموسيقى هادئ تتقابلان مع الألحان الصاخبة المستفزّة والخطابية السياسة آنذاک. (السالسى، ٢٠٠٤ش: ١٤٥)

ومن خصائص شعره هو التناسق الفكرى والنزعة العقلية، ومما يميز شعره نزوعه إلى توظيف الرموز، محتذياً فيه سعيد عقل زعيم الرمزيين فى لبنان. إلى جانب ذلک، نرى احتفاله بترجمة الشعر العالمى المعاصر، وقد نالت الشهرةَ ترجماتُه لإليوت ولعذرا باوند، ولروبرت فروست، ولكارل سندبيزغ. وهو شاعر، يقول عبدالله العذرى فى تكريمه وتأبينه: «أننى أعتبره أباً للشعر الحديث.» (المصدر نفسه: ٤١)

الحرية ومظاهرها من منظور يوسف الخال

يرى يوسف الخال بأن الإنسان هو المسألة الأساسية لأنه الجوهر ويجب أن يحيا حرّاً. (المصدر نفسه: ٤١) ولهذا ترتكز أفكاره ورؤاه على الحرية، وتتجلى الحرية فى أشعاره بصور مختلفة منها، الحرية الوجودية.

١- الحرية السياسية

تعنى الحرية السياسية تمكّن الفرد من ممارسة حياته السياسية والاجتماعية، وذلک عبر اختيار حُكّامه وسلطانه السياسيّ، واستطاعته فی أن يشغل المناصب العامة والسياسية والاجتماعية، كما تعنى التعبير عن آرائه وأفكاره بكل حرية فی الأوساط السياسية والاجتماعية. (طباطبائی، ١٣٧٠ش: ١٠)

«بصورة عامة، تشير الحريةُ السياسيةُ إلى دور الناس فی الحياة السياسية، ويُقصد بها جميع تلک الحريات الّتی يتمتع بها الفردُ فی إطار المجتمع وأمام الدولة، لهذا، تدخل حرية التعبير، وحرية الصحافة، وحرية النقد، والاحتجاج، وغيرها فی خانة الحريات السياسية.» (لک زايی، ١٣٨١ش: ١٩٥)

يقول يوسف الخال حول الحرية السياسية: «إن الحرية السياسية مسألة فهمناها فی معظم الأحيان ولكننا أخطأنا مِراراً فی توظيف الأدوات والآليات الّتی تُحقق الحرية.» (السالسی، ٢٠٠٤م: ٤٤)

تُعد الحرية السياسية من منظور الشاعر وسيلة، وليست هدفاً؛ وسيلةٌ تهدف إلى تبلور شخصية المواطن أمام الناس والعكس صحيح.

إنه دائما يتحدث عن الحرية، فالشاعر يُضحی بكل نفيس فی طريق الحرية وإحقاقها، وإن تطلّب الأمر سيفدی روحه لأجله:

«أنا كلُّ ما أدعی
حملت صليبی معی
يا ليالی اسمعی
سأخلق فجراً جديداً
إذا الفجرُ لم يطلعْ» (الخال، ١٩٧٩م: ١٥-١٦)

يخاطب الشاعر فی هذه الأشطر جهاز الدولة والسلطات، كما جاءت كلمة صليب لتعبّر عن تأهب الشاعر للموت؛ فهو يحمل الصليب على أكتافه دائماً غير مكترث بالموت الذی يحدق به، فيعلن الشاعر عن استعداده التام للموت فی سبيل الحرية وهذا برهان دامغ على نزوعه إلى الحرية والتغنی لها.

ويــرى الخال بأن ثمن الحرية غالٍ، وإذا شــعب أراد الحريةَ فعليــه أن يثور، ويعزّز حريته بالقرابين وبالشهداء الذين يفديهم فى طريق الحرية.

«سَمَروا كلَّ مطرح بالضحايا

والضحايا على المدى أحياءُ» (الخال، ١٩٧٩م: ٩١)

وفى مكان آخر من القصيدة يذكر الشــهداء الذين ســقطوا فى سبيل إحقاق الحرية، رافضين ضيم الظالم، لينوّروا بدمائهم ليالى الجور الحالكة:

«فالضحايا باسم الكنيسة والدين

ترامت مخنوقة الأنفاس

تحمل النور فى الليال الدواجى

وتصبّ الزيوت فى النبراس» (المصدر نفسه: ١١٠)

يرى الشــاعر أنّ تروّى دماء الشهداء دوحةُ الحرية حيث تضمن استمرارية الحرية. كما ينبش الشــاعر ذاكرة التأريخ ليضع أمامنا مشــاهد الصراع لأجل الحرية، ويصرّح بأن جبروت الســلطان لن يدومَ إلى الأبد وســيحين يوماً يُخلَع عن عرشــه؛ إذن، يُحذّر حكام العرب ألّا يظلموا شعبهم وألّا يغترّوا بسلطتهم، فإنها ليست بخالدة:

«أىُ ملكٍ كذلک يبنى على القوة

يبقى فلا يزول ويبلى

أين مجدُ العربان بعد ازدهار

حطَّ فى قمة الجلال وحلّا؟

أين جنكيزُ فاتحُ الشرق والغرب

نذيرُ الهلاک أنّى أطلا؟» (المصدر نفسه: ١٠٤)

لم يتجاهل الشــاعرُ الانتفاضةَ الفلسطينية المســلحة، وردةَ فعل كيان الغاصب على الأراضى اللبنانية، فلهذا لم يقصّر فى كتاباته عن النظر إليها، كما تحدث وسـّطر مقالاتٍ حــول بعــض الحقائق، خاصةً فيما يتعلق بقوم يهود، معوّلــاً فى ذلک على التأريخ، لأن التأريــخ لا يكذب. وتطرق فيها إلى تبعــات حرب الكيان الصهيونى مع العرب وأثرها على مصير العرب. (السالسى، ٢٠٠٤م: ١٠٢)

إنّ الشـاعر شـهد ظلم حكّام العرب تجاه شـعوبهم وخوفهم من الكيان الصهيونى الغاشـم. يرفض يوسـف الخال، الكيانَ الغاصب وكان يثير فيه الحـزنَ مصانعةُ حكام العرب مع الصهاينة،كما يُشـبِّه الشـاعرُ الصهاينةَ بالظلام؛ لأن الظلام يرمز إلى الضيم والجور، وذلک عندما يصرخ الشاعر:

«أمحت شعلةٌ، فَسادَ الظلام
فى بلادى وطأْطأَ الفكر عيا
يحمل القيد فى يديه ويمشى
فى عبودية الظلال شقيا» (الخال، ١٩٧٩م: ١١٥)

إنَّ المواهب الإنسـانية والفردية لا ترى النـورَ إلّا إذا هيئت له فضاءات رحبة من الحريـة، فالأجواء المغلقة التى تهيمن عليها الدكتاتورية والّتى فيها معالم الكتب، سمحت لخلق أرضية تنشأ وتبرز فيها المواهب والإبداعات. ففى الجو الاستبدادى الذى يسيطر على المجتمع، يرتفع فيه شأن المداهنين ويذلّ الأحرار والمفكرون؛ لأنّ الظروف الراهنة لا تسمح المجال والمطارحة لأهل الخير وللمصلحين. (لک زايى،١٣٨١ش: ١٩٥)

فالشـاعر على الرغم من الصعوبة التى يواجهها مـن ضيم الحكام، مع هذا لا يفقد أمَله ويبقى متفائلاً بالأيام الآتية، وواثق من أنه سيذوق طعم الحرية الحقيقية، وسينتهى صراعه مع الشر ويعيش بالحرية التامة للأبد، كما يرى أن الناس سينالون الحرية التامة فى الغد الآتى:

«وغداً عندما تعود السيوف
القضب منصورة إلى الأغماء
أترى ينتهى صراعى مع الشر
فأحيا حُرّاً إلى الآباد» (الخال، ١٩٧٩م: ١١١)

٢-الحرية الاجتماعية

يُعَرِّف الأسـتاذ مطهرى الحرية الاجتماعية فى قوله:«على الإنسان أن يتمتع بالحرية بين سائر أبناء المجتمع، وأن لايكون أحد حجرة عَثرٍ على طريق نموّه وتعاليه، وأن لا يتمّ

حبسه فيتوقف نشاطه، ولايستغله الآخرون ولا يستعبدوه؛ أيجب أن لا يستغل الآخرون جميع قدرات الإنسان الفكرية والجسمية لخدمة مصالحهم الفردية.» (مطهرى،١٣٦١ش: ١٤)

تتشكل الحرية الاجتماعية بين البشر والفئات الإنسانية عبر سير العلمية، والثقافية، والاجتماعية، والسياسية، ولا ينطلى ما للحرية من علاقة وثيقة مع الموسسة السياسية فى المجتمع، وإنه مع نشوء واستقرار الحرية تتوفر أرضية لتعاون الشعب فى مختلف المجالات. تشتمل الحرية الاجتماعية على الحرية الثقافية والسياسية والأخلاقية والسلوكية، والحرية الثقافية تندرج فيها حريات أخرى، منها: حرية الفكر، وحرية العقائد، وحرية التعبير والقلم. (فرزين راد، ١٣٨١ش: ٩٤)

يُعدّ يوسف الخال شاعرا ثوريا ينزع إلى الحرية، ويدعو الشعب إلى الثورة والتمرد على التخلّف الفكرى والثقافى، وتتبلور هذه الفكرة والدعوة بصورة جليّة فى مجموعته الشعرية (الحرية)، إنّه لا يرى أن لبنان خليق بالتقدّم فحسب بل يحسب أن جميع الدول العربية جدير بالتقدم والتطور، ويعتقد بأن الكساد الفكرى ألقى بظلاله على العالم العربى فى مضمار معرفة وإعمار أمر الدنيا والدين واللغة والأدب. (السالسى، ٢٠٠٤م: ١٠١)

ويعود هذا الأمر إلى غياب الحرية الاجتماعية والسياسية، كما حدا التخلّف وتباهى العقل العربى إلى تضليل الشعوب العربية. إنَّ الشاعر متحمّس للإصلاح الاجتماعى بحيث يُشدِّد على هذا الأمر، ولم تستطع التطورات أن تحول دون رغبته فى الإصلاح، فتراه يتطرق فى بعض مقالاته الّتى نشرها فى "صوت المرأة" إلى الجوانب الحضارية المتنوعة، منها: غياب التناغم بين الروح والجسم. (المصدر نفسه: ٤٥)

يعتقد الشاعر أن بلاده كان يتربّع على عرش العِزَّة والفخر ثقافياً، وأدبياً، واجتماعياً، ويبثّ فى معظم قصائده هذه الفكرة ويشير إليها، كما أنشد:

«يا بلادى حضنتَ، من قبلُ، أمجاداً
وشُيِّدتَ فى بناء الحضارة
تغمرين الأمداء حباً وإيماناً
وتعلينَ للجال منارة» (الخال، ١٩٧٩م: ١١٣)

عندمـا يصبح الفكر مُكبَّلاً، ولا يتمكن مـن أن يتلقّى التوجيه الذى يليق به؛ عندئذ يتمخض عنه الضلالُ والانحطاط للشـعب وللحكومة على السـواء. وهذا أمر استوعبه الشـاعر، فمن منظور الشاعر، كان لبنان من قبلُ فى ذروة المجد، ولكن هذا المجد غاب ليحـلّ محلّـه التخلّفُ والعقم الفكـرى والعقلى، لينتهى بها الأمر إلـى التردّى فى النكد والتخلّف، وفى الواقع، يخاطب الشـاعر أبناء جلدته ليسـتفيقوا من سباتهم وينتبهوا بما يحصل حولهم:

«لبنان شأنک أن تبالى
جَنَحَتْ خطاک إلى الضلال
ما لِى أراک، تكاد بعدَ اليوم
تغرق فى الرِّمال» (المصدر نفسه: ٨١)

لا شكّ أن الظروف السياسية والاجتماعية التى تحكم على مجتمع ما، تعتبر من أهمّ المكونات فى جميع المجتمعات الإنسانية، وفى الواقع، تشكّل الثقافة هويةَ المجتمع وكيانه؛ أيـاً كان ذلک المجتمـع، وإذا خَلَا مجتمعٌ من الثقافة سـيفقد هويتـه وبالتالى، يتجاهل المجتمع أمر الشعب ومصيره:

«جحدتْ بک الأبناء لا
أيدٍ تمتدّ ولا مبالى
فكأنما خلع الظلام
عليک أردية الوبال
ولأنت، قبل اليوم،
النور فى دَربِ الليالى» (المصدر نفسه: ٨١-٨٢)

فإذا رافق الشـعور بالمسـؤولية أبناءَ المجتمع؛ سـيؤدّى ذلک إلى بقائه ويخلق فيهم شعور الاستغناء عن غيرهم من المجتمعات. يقول الأستاذ مطهرى فى هذا الإطار: «إنّ الشـعب الذى يمتلک فلسفة وشخصية مستقلتين فى الحياة، لاتنهصر ولاتذوب فى غيرها من الشعوب.» (فرزين راد، ١٣٨١ش: ٩٩)

من منظور الشـاعر لاتتحقق الحرية ببساطة، فالحرية تخلقها التضحية والعناء. يُعوّلُ

الشـاعر على الشـعب فى رؤيته حيال الحرية، ويرى أن الحريـة لاتتحقق على أرض الواقع، وذلک إذا تجاهل شـعبٌ قضية الحرية وتخلّـى عن أهداف البلاد، وبالتالى وإثر ذلک سيعمّ الضيم والجور على موطنهم.

إنَّ الشـاعر على الرغم من العراقيل التى يواجهها فى مسـيرة إصلاح المجتمع؛ مع ذلـک، يبقى متفائلاً ويعتبر لبنان مهداً للتغيير والتطـور فى العقل والفكر، كما يعتقد أن تقدم العالم العربى مرهون بتقدّم لبنان وتطوره.

«لبنان يا بلدى الحبيب
إذا عبدتُک لا أُغالى
أملُ العروبةِ فى يديک
وإن تجاهلت الموالى» (الخال، ١٩٧٩م: ٨٣)

إنّ يوسف الخال شاعر وطنى حدا به حُبّه للوطن إلى أن يصرخ عبوديته له، ويذهب أبعد من ذلک، حيث يعلن عن عبادته لتلک الأرض وهذا ممّا يكشف عن حسّه القومى. والشاعر يعتبر لبنان موطناً للحضارة، وللأدب، وللثقافة.

إذن، من منظور الشـاعر؛ لا ترى الدولُ العربية وجهَ الحضارة، إلّا إذا تقدّمت لبنان وسـارت فى درب الحضـارة، كما يـرى أن إحدى الطرق التى ترشـد إلى الحرية، هى الاعتناء بالحرية الفردية والاجتماعية.

برهنت الأبيات السـابقة على أن يوسـف الخال شاعر ينزع إلى الحرية، ولا يعرف غيرَ المثابرة والجدّ طريقاً للوصول إليها، كما يشـكو من تخلّف الشـعوب العربية. ولكن على الرغم من هذه الظروف المأسآوية، يظل الشاعر متشبثاً بالأمل فى أمر الإصلاح.

٣-الحرية الوجودية

تعتـبر الوجودية أو فلسـفة أصالـة الوجود، ثـورةً على جميع المذاهب الفلسـفية الكلاسـيكية؛ أياً كانت، وتُولى الوجوديةُ اهتماماً واسـعاً إلى كيان الإنسـان أكثر من أى أمر سِـواه. تعتقد هذه الفلسـفة بأن جميـع التيارات الفلسـفية القديمة والحديثة قد ناقشـت أموراً شتّى منها: المعرفة وطبيعة نشـوئها، وكيان الأشياء مستقلة عن الأفراد،

أو منح الحياة إلى الأشياء من قِبَل فهم الأفراد إليها، كما خضعت الوجود للدراسة بصورة مجرّدة، ولكنها تجاهلت فى مناقشاتها ودراساتها الإنسان الحقيقى بلحمه ودمه. (مردانينوكنده، ١٣٨١ش: ٢٨)

«يعتبر مؤرخو تأريخ الفلسفة، كى يركه غور، موسساً للوجودية ثمَّ يذكرون اسمين من فلاسفة الغرب وهما "هيدغير" و"ياسبرس".» (دستغيب، ١٣٥٤ش: ٦)

تقوم دعائم الوجودية على أربعة محاور وهى: أصالة الوجود، والحرية، والالتزام، والقلق؛ وهذه الدراسة ستناقش إحدى محاور الوجودية؛ وهى الحرية. ترتكز الحرية الوجودية على فلسفة الوجود، فتسعى الوجودية، فى الحقيقة، إلى أن تستخرج النتائج التى تترتّب على حالة متَّسقة دونَ أن تتكئ على واجب الوجود. (سارتر، ١٣٥٥ش: ٧٨)

«هذا المذهب يتّخذ الحرية معياراً لتعالى الإنسان ولكل ما يرتبط بجوهر الإنسان والقيم الإنسانية، وتعتقد بأن الإنسان هو الكائن الوحيد الذى خُلِق حُرّاً فى هذا العالَم؛ أى إنّه لا يخضع لأى جبرٍ وفرضٍ من الخارج، وكما عبّر عنه القُدامى أنه كائن يتمتع بالاختيار، أو مثلما يردّد البعض، كل كائن سوى الإنسان محكوم بالجبر؛ أى تؤثّر عليه مجموعة من العلاقات السببية، ولكن الإنسان ليس مقهوراً من الخارج ولاتتحكم عليه أية علاقات سببية جبرية.» (مطهرى، ١٣٧٠ش: ٢٣٠-٢٣١)

إنّ الوجودية ترفع من شأن الإنسان بحيث تعدّه سيِّدَ الكائنات، ولهذا يعتقدون بأن الإنسان يجب أن يكون حُرّاً، والحرية كانت مَداراً أساسياً فى أفكار سارتر. (أحمدى، ١٣٨٤ش: ٢٢) يقول سارتر حول الحرية الوجودية: «عندما يصبح جميع أبناء العالم أحراراً عندئذٍ سأكون حُرّاً، وإن بقى فردٌ واحدٌ فى العالم مكتبلاً وأسيراً، لن تكون هناك حرية عندئذ.» (سارتر، ١٣٥٥ش: ٦٨)

يمكننا أن نستلخص أهم ميزات ومبادئ الوجودية فيما يلى: الحرية، والفردية، والقلق، والنهضة، والاحتجاج، ومعرفة حالة الإنسان السيئة، والشعور بالهجران وبالغربة، والإيمان بالله، والإيمان بأسبقية الوجود على الماهية، والازدواجية الأساسية. (مردانى نوكنده، ١٣٨١ش: ٣٠-٣١) يقيم يوسف الخال للإنسانية قيمة عالية؛ فمن هذا

المنطلق، يعتبر الإنسانَ القضيةَ الرئيسيةَ لأن الإنسان جوهر وحينما نلفظ بالإنسان، نقصد العقل، والتفكير، ومحاصيلهما. (السالسى، ٢٠٠٤م: ٦١)

أحاط الظلامُ بالشاعر من كل جانب، ومع هذا إنه يمضى متّخذاً من العقل مركباً فى طريقه، باحثاً عن الحقيقة، إذن لابُدَّ من العقل فى هذا السبيل:

«أنا حُرٌّ يا ربّ، حُرَّ: لِي العقل
جناحٌ وذروة الحقّ مرمى
يا إلهى شدِّد جناحى، وزدْه
قوة منكَ فهو غضّ» (الخال، ١٩٧٩م: ٩٨)

«تنقسم الوجودية إلى ثلاثة أقسام: ١- الوجودية الدينية التى تؤمن باللهِ وتبنى دعائمها على هذه العقيدة، والوجوه الّتى تمثّل هذا القسم هم؛ كيركغور، مارتن بوبر، پاول تيليش. ٢- الوجودية الملحدة التى لاتؤمن بالله، وسارتر هو الرائد بهذا النوع. ٣- الوجودية غير الدينية وتهدف هذه الوجودية إلى تفسير وتبرير الوجود والعالم دونَ أن تُعوّل على عنصر الدين، وخير من يمثل هذا النوع هو مارتين هايدغر.» (گودرزى لمراسكى، ١٤٣٣م: ١١٩)

إنَّ يوسف الخال يؤمن بالله ويستمدّ قواه من ربِّه ويلحّ على ذلک فى مسيرة إحقاق الحرية الحقيقة، إلى جانب ذلک، هو شاعر وجوديّ وينتمى إلى مدرسة فكرية ترى أن الإنسان قد حكم عليه أن يخلق البشرية أبداً دونَ التعويل على عون يستعين به، إذن، على الإنسان أن يحيى فى ظلِّ عقله ويبنى البشرية. (سارتر، ١٣٥٥ش: ٣٧)

والشاعر كأقرانه من الوجوديين يؤمن بالفكرة تلک، ولايرى للإنسان حياةً على الأرض إلّا إذا استنجد بعقله فى شؤون حياته. من منظور الشاعر، يُعتبر العقل سبيباً أساسياً للوصول إلى الحرية، وأهم فى ذلک يُمهّد العقلُ الطريقَ للبلوغ إلى قمم الحق، وكما يقول لايبنيتس: «الحرية هى إثارة العقل.» (كرنستون، ١٣٥٤ش: ٣١)

«فإذا العقل سيّدٌ، والأمانى
حُبالى بكُلِّ حُبٍّ وخير» (الخال، ١٩٧٩م: ١٠٥)

ولكن الشاعر لايعتبر التفكيرَ، السبيلَ الوحيد لبلوغ المرء إلى الحرية بل نراه

يستنجد بربِّه حتّى يملأ صدره حُبّاً لينال الحرية والحقيقة:

«ربِّ هَبْنى مَحَبَّةً، فيها أدرک
حُريَّتى وأعرف نفسى
أنا، إن لا أحب، ما نفع عقلى
لخلاصى وباطل كل بأسى» (المصدر نفسه: ٩٩-١٠٠)

مع هذا، لم ينسَ الشاعر أنَّه سيظل عبداً لنفسه مهما حاول التخلص من ربقتها، وسيبقى الرعب يحدق به أينما اتّجه وحيناً يفقد أمله فيرى الحرية سراباً وخيالاً:

«لا خلودَ بعد الممات لنفسى
ومصيرى مُغَلَّفٌ بالظلام
كنت عبداً للعيش، للموت، للشر
وعبداً للخوف والآلام
أجهلُ الله، أجهل الحُبَّ والحقَّ
وحريّتى من الأوهام» (المصدر نفسه: ١-٣)

إنّ الوجودية تتأمّل الموت وذلک قبل أن تكبّ على الحياة وتبحث عن طرق لتحقيقها على الأرض؛ إذ أنها تحسّ وتلاحظ بأن الإنسان كائن كُتِبَ عليه الفناء. (زمانى، ١٣٥٢ش: ٤٣)

إذن، إنّ الشاعر يقتفى أثر الوجوديين فى هذه الرؤية، فلا تشغل الحياةُ بالَه فحسب بل يصبح الموتُ، والشرّ، والألمُ، موضعَ اهتمامه. يقول الخال: إذا كنت عبداً لنفسک وقضيت حياتَک بين الرعب والخوف فلن تنالَ الحريةَ الحقيقية.

من منظور الشاعر، يتطلّب الوصول إلى الحرية الحقيقية، معرفةَ الله والمحبّة والحقيقة. إنّ الحرية هى المحور الأساسى الذى تدور حولها أفكارُ الشاعر، فكما أنّ الوجودية تنزع إلى الحرية وتتخذها محوراً لأفكارها؛ فإنّ الشاعر يتخذ الحرية مركباً ليسير به نحو الحرية والحقيقة، ومستعدٌّ لأن يملأ الأرضَ من القرابين ويذرف دموعاً غزيرات فى دربه ذلک:

«أنا حُرٌّ يا ربِّ! حريّتى كُنهى

أرُود الجمالَ فجراً وفجرا
كلّ فجرٍ أرودُ أفرشُ الأرضَ
ضخايا، وأُفَجِّرُ الدمعَ بحرا» (الخال، ١٩٧٩م: ٩٧)

وبما أن الحرية من السِّـمات البارزة فى المذهب الوجودى، فإنّ الشاعر قد استوعب هذا الموضوع، ويرى نفسـه حُرّاً يبحث عن الحرية. فمن وجهة نظر الشاعر، تعُدّ الحرية ينبوعاً لكل شيء، والأحرار هم الذين يقومون بأمر تطوير المجتمع وتغييره:

«أنا حُرٌّ يا ربِّ، ما أنت حُر؟
ما وجودى، تُرى إذا كنتُ عبدا
شيمة الحُرِّ أن يروضَ أحرارا
ويأبى إلّا التحرر مبدأ» (المصدر نفسه: ١٩٧)

هناك علاقة وثيقة بين الإنسان، والحرية، والوجودية. تهدف الوجودية إلى أن يعلو من شـأن الفرد، وهى الفلسـفة الوحيدة الّتى تمنح الكفاءةَ للفرد، كمـا أنّها لاتنظر إلى الإنسان نظرة شيئية. (سارتر، ١٣٥٥ش: ٥٤)

يذهب الخال إلى أن الإنسان يستحق الحرية فإن كان عبداً صار فى عِداد الأموات لا وجود له. يقول سـقراط: «الحرية هى أن يكون الإنسـان فى خدمة الخير ويروضها دائماً فمستوى خدمته يحدّد نطاق حرية الإنسان.» (روزنتال، ١٣٧٩ش: ١٥٦)

إذن، فإن كان التفكير الحر فى خدمة الخير أدّى ذلك إلى تطور المجتمع وتغييره، وبما أن الشاعر يرى بأن الغاية القصوى للحرية تتجلّى فى إحقاق الحقيقة، فلهذا إن تباهتت ملامح الحقيقة يسـتاء ويتضجر، فما بالك إن تمّ تجاهل الإنسـان عن الحق والحقيقة؛ فيشكو الشاعر فى هذه الحالة فى المقطع التالى:

«ويحَ نفسى، أتعسَ الحقَ
فى الدنيا
فكم مرّةً يُباع ويُشرى
كُلُّ شيءٍ لدى العبيد الحلال
غير شيء:قول الحقيقة جهرا» (الخال، ١٩٧٩م: ١٠١)

يؤكّد الوجوديون على وجود الإنسان، ويوسف الخال هو الآخر الذى يقيم للإنسان ووجوده وزناً وقيمةً؛ إذ إنّ الحق جزء من حياة الإنسان، وعلى هذا الأساس هناك علاقة وثيقة بين الحق والوجودية، فالشاعر يشكو من تجاهل الحق فى هذه الأبيات، وقد برهنت الأبيات بأن يوسف الخال أديب وجودى يتخذ الحريةَ مركباً للوصول إلى الحقيقة.

من منظور يوسف الخال، إنّ الإنسان لا يكون حراً إلّا إذا ألمَّ بالحق وعرفه وخشع له، كما يتّخذ الخال، الحريةَ الفردية مركباً للوصول إلى ذات المطلق، وأيضاً لخلق مجتمع حديث، فلهذا دعا إلى التحرّر من كافة الأساليب القديمة فى الشعر التراثى والّتى فرضت على الشاعر الحديث وعلى موهبته وذوقه الشخصى، كما يؤكّد على الثورة فى الشعر والتمتع بالحرية فيه. (السالسى، ٢٠٠٤م: ٤٤)

النتائج

- خضعت أفكارُ يوسف الخال، فى هذا البحث، للدراسة وذلک فى ثلاثة محاور: الحرية السياسية، والحرية الاجتماعية، والحرية الوجودية.
- الحرية السياسية: وهى التصدّى للحكومة الجائرة ورفضها، خاصةً رفض الكيان الصهيونى الغاشم؛ فعلى المرء أن يتحمل الصعاب ويُضحّى بنفسه فى هذا الدرب.
- الحرية الاجتماعية: وهى أنّ على الإنسان أن يستوعب هويته الفردية وكيانه، وألّا يتجاهل مصير شعبه بل عليه أن يحسّ بالمسؤوليّة حيال ذلک.
- الحرية الوجودية: تميل إلى أن تعلو من شأن الفرد وتقيم له وزناً وقيمة؛ فتشكّل الحريةُ نواةَ أفكار هذا المذهب، وترى أن العقل والمحبّة أداتان يستعين المرء بهما للوصول إلى الحرية.
- يُعتبرُ يوسف الخال أديبا بارزا يقيم للحرية قيمةً بالغة فى حياة الإنسان ويعتبرها حقّاً طبيعياً للفرد، كما أنّه أديب متحرر يطلب للإنسان حريةً داخلية، فمن منظور الشاعر عندما تتحقق الحرية الداخلية فى كيان الفرد، يؤدّى ذلک إلى تحرّر المجتمع وإلى نُموّ قدرات الإنسان فى سيره إلى الكمال.

المصادر والمراجع

نهج البلاغة.

احمدی، بابک. (۱۳۸٤ش). سارتر که مینوشت. تهران: مرکز.

أسـوار، موسی. (۱۳۸۱ش). از سرود باران تا مزامیر گل سـرخ؛ پیشگامان شعر امروز عرب. تهران: انشارات سخن.

الخال، یوسف. (۱۹۷۹م). الأعمال الشعریة الکاملة. بیروت: دارالعوة.

دستغیب، عبدالعلی. (۱۳٥٤ش). فلسفه‌های اگزیستانسیالیسم. تهران: بامداد.

روزنتال، فرانس. (۱۳۷۹ش). مفهوم آزادی از دیدگاه مسـلمانان. ترجمه منصور میراحمدی. قم: حوزه علمیه.

الریس، ریاض نجیب. (۱۹۹٦م). ثلاثه شـعراء وصحافی (رسـائل جبرا ابراهیم جبرا، یوسف الخال، توفیق صایغ إلی ریاض نجیب الریس). لندن: ریاض الریس للکتب والنشر.

زمانی، محمدرضا. (۱۳٥۲ش). برسی روابط جامعه با اگزیستانسیالیست. تهران: کاشانی.

سـارتر، ژان پل. (۱۳٥٥ش). اگزیستانسیالیسـم واصالت بشر. ترجمه مصطفی رحیمی. تهران: .مروارید.

السالسی، جاک أماتاییس. (۲۰۰٤م). یوسف الخال ومجلته شعر. بیروت: دارالنشر.

صناعی، محمود. (۱۳٥٤ش). آزادی وتربیت. تهران: لانا.

طباطبائی مؤمنی، منوچهر. (۱۳۷۰ش). آزادی‌های عمومی وحقوق بشر. تهران: لانا.

فرزین‌راد، رؤیا. (۱۳۸۱ش). «آزادی‌های اجتماعی از دیدگاه اسلام». العدد ٤. صص ۹٤-۱۱۳.

کاتوزیان، ناصر. (۱۳۸۱ش). آزادی اندیشـه و بیان. تهران: دانشـکده حقوق وعلوم سیاسـی دانشگاه تهران.

کامبل الیسوعی، روبرت. (۱۹۹٦م). أعلام الأدب العربی المعاصر سیر وسیرة ذاتیة. المجلد الأول والثانیة. بیروت: المعهد الألمانی للأبحاث الشرقیة.

کرنستون، موریس. (۱۳٥٤ش). تحلیلی نوین از آزادی. ترجمه جلال الدین اعلم. تهران: سپهر.

گودرزی لمراسکی، حسن. (۱٤۳۳ش). «الوجودیة فی شعر صلاح عبدالصبور». مجلة اللغة العربیة وآدابها. السنة الثامنة. العدد ۱٥. صص ۱۱۱-۱۲۷.

لکزایی، شـریف. (۱۳۸۱ش). «آیه الله مطهری و آزادی‌های سیاسی». مجله علوم سیاسی. العدد ۱۷. صص ۱۹۱-۲۱۲.

مبشر، حشمت الله. (۱۳٥۸ش). چشم‌انداز آزادی در شعر جهان. تهران: افشین.

مردانی نوکنده. محمدحسـین. (۱۳۸۱ش). «مبانی اگزیستانسیالیسم». مجله کیهان فرهنگی.العدد ۱۹٥. صص ۲۸-۳۱.

مطهری، مرتضی. (١٣٦١ش). گفتارهای معنوی. تهران: صدرا.
مطهری، مرتضی. (١٣٧٠ش). انسان کامل. تهران: صدرا.
میرقادری، سیدفضل الله. (١٣٨٥ش). شعر تأملی در ادبیات عربی معاصر. شیراز: نوید.

پژوهشگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی
پرتال جامع علوم انسانی